الخطاب الحجاجي في البلاغة العربية
من خلال كتاب "الإيضاح"

كيحل السبتي
كلية اللغة والأدب العربي
جامعة الجزائر2 (بوزريعة)–الجزائر العاصمة–

الملخص:

تحاول هذه الدراسة أن تلقي الضوء على جانب من جوانب البلاغة الجديدة/ بلاغة الحجاج، عبر محاولة تأصيلية في تراثنا اللغوي العربي القديم، وتحديدا في بلاغة القزويني من خلال كتاب الإيضاح في علوم البلاغة.

بينت لنا هذه المقاربة الحجاجية أن بلاغة القزويني خير ممثل لكثير من المصطلحات اللسانية الحديثة، وبالخصوص النظرية التداولية الحجاجية.

كما كشفت لنا هذه الدراسة عن الوجه الآخر للآليات البلاغية التي يتوسلها الخطيب عندما يحاول استدراج مخاطبه ومحاصرة عقله وفكره، ثم إشباع عواطفه وانفعالاته حتى يذعن ويقنع بما يلقى عليه.

ثم إن مدونة القزويني، وبما تحمله من إشارات إلى تلك التعابير المجازية، وما تملكه من القدرة على تحريك النفوس وتنشيط العقول، إنما استمدت طبيعتها الحجاجية من عدولها عن التصريح وانزياحها عن درجة الصفر في التعبير.

إجمالا، أن هذه المدونة ثرية، وقد استطاعت أن تمدنا بجملة من المفاهيم اللغوية نراها قواسم مشتركة هامة بين البلاغتين: القديمة والحديثة.

الكلمات المفتاحية:

البنية الحجاجية، النظرية التداولية، بلاغة القزويني، الآليات البلاغية، المجاز التمثيل، القول الكنائي، الحجاج، الإقناع، التأثير، حجاجية البديع، مدونة الإيضاح.

Summary:

This study attempts to shed light on one aspect of the new eloquence (Rhetoric)/ eloquence of argumentation, by attempting to root out our ancient Arabic linguistic heritage, specifically in the eloquence (Rhetoric) of KAZWINI through his book "EL IDHAH" in the sciences of Rhetoric.

This rhetoric approach has revealed to us that KAZWINI'S eloquence is a good representative of many modern linguistic terms particularly the pragmatic theory.

This study also revealed to us the other side of the rhetorical mechanisms that the orator uses when he tries to convince the other a satisfying convince. And then satisfy the other's emotions until he convince him about what he cast on.

Moreover, The KAZWINI'S book "EL IDHAH", with its references to these metaphorical expressions and its ability to move souls and revitalize minds, got derived its argumentation nature from the metaphorical expressions.

In general, this book is rich, and has been able to provide us with a set of linguistic concepts that it considers to be important and common between the new and ancient eloquence.

Keywords:

The Argumentation, Pragmatic theory, KAZWINI's eloquence, Rhetorical mechanisms, Metaphorical expressions, Convince, "EL IDHAH book"

المقدمة .

يعتبر الحجاج شكلا من أشكال التواصل اللغوي، يسعى من خلاله المتكلم إلى التأثير في السامع، محاولا في ذلك جلب انتباهه، ثم العمل على إقناعه وكسب رأيه وتأييده وصولا الى إفحامه، وغلبته بالحجة بغية أن يعدل المتلقي من سلوكه ورأيه، وهذه المعاني كلها مستمدة من تحديدات وإشارات لدى كثير من أقطاب النظرية الحجاجية في الفكر اللغوي والبلاغي المعاصرين، ومنهم (ح.بيرلمان)، إذ يقول عن الحجاج هو:"حمل المتلقي على الإقناع بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الإقناع"[1].

ويراه الباحث طه عبد الرحمان في قوله: "حد الحجاج أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"[2]، وحسب رأيه دائما أنه صفة ترفق كل خطاب"، إذ الحجاج يوصف بأنه طبيعة في كل خطاب"[3].

وقد ذهب بعضهم إلى أن اللغة ذات بعد حجاجي في جميع مستوياتها، لأن المتكلم يستخدم الوحدات اللسانية حسب ما يريد إبلاغه من أفكار، وبالقدر المقصود، ووفقا لأغراض التواصل المختلفة.

و بهذا فالحجاج مفهوم متشعب المعنى لتشعب مجالاته واستعمالاته، فهو يستمد معناه من المرجعية الخطابية المحددة، ومن خصوصية الحقل المعرفي والتواصلي الذي ينتمي اليه، "فلا غرابة والحالة هذه أن هناك حجاجا خطابيا (لسانيا)، وحجاجا خطابيا (بلاغيا)، وآخر قضائيا أو سياسيا، أو فلسفيا"[4]، والذي يعنينا في هذا البحث هو الحجاج اللساني البلاغي وامتداد جدوره في تراثنا اللغوي وبالتحديد في مدونة الإيضاح للخطيب القزويني.

ارتباط الحجاج بمفهوم البلاغة:

وأول ما نقف عليه من الظواهر الحجاجية في البلاغة العربية، هو في تلك التعريفات المقدمة لها، فابن المقفع يجعل المحاججة وجها من أوجه البلاغة، فعندما سئل ما البلاغة ؟ قال: " البلاغة اسم جامع لمعاني تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا"[5].

وجاء كذلك في كتاب العمدة، "وقيل لخالد بن صفوان: ما البلاغة ؟، قال: إصابة المعنى والقصد إلى الحجة ..."[6].

وفي حديث الجاحظ عن البلاغة ما يؤكد هذا الحضور القوي لجانب الإقناع والمحاججة في الكلام، و يتجلى ذلك في قوله: "وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة، وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة بأعظم مما يحدث عن العي من اختلال الحجة"، ثم أردف قائلا: لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه"[7] فأول ما تنصرف إليه البلاغة هو الإبلاغ، فتعالج كيفية التأثير في الآخر وإقناعه وبيان المقاصد التي يتوخاها من القول، فالبلاغة تنطلق من المتكلم وقصده ثم تتجه نحو السامع باعتباره المعني بالكلام فتراعي جميع أحواله، وبعدها توجه عنايتها إلى الخطاب ذاته فتضع له شروطا حتى يصير خطابا بليغا ناجحا .

والناس يتدرجون في البلاغة والقدرة على المحاججة حتى يمكنهم تقبيح الجميل، وتجميل القبيح، وتصوير الباطل في صورة الحق.

وبناء على ذلك نقول: أن مفهوم الحجاج قد اتخذ من البلاغة مجالا له، وجعل من مختلف بنياتها آليات يتوسلها في محاولة التأثير في الآخرين وإشباع فكرهم واستمالة مشاعرهم لأن "هذه التقنيات هي مطواعة حسب استعمال المرسل لها، إذ يختار حججه وطريقة بنائها بما يتناسب مع السياق الذي يحف بخطابه"[8].

ومن هذه الآليات المتوسل بها في إنجاح عملية الإقناع والتأثير ما يلي:

أ ـ الحجاج بالمجاز:

في الحقيقة أن الكلمة لا توصف بالمجاز إلا حين استعمالها في سياق نصي معين، " لأن الكلمة قبل الاستعمال لا تسمى مجازا"[9]، كالعبارة من قبيل: زرت البحر في قصره، نجد فيها لفظة "البحر" هي الموصوفة بالمجاز، وأن استعمالها هو الذي حدد انتقالها من معناها الأصلي إلى معنى آخر، ومن المسلم به لدى البلاغيين أن المجاز أبلغ من الحقيقة، " فمزية أجناس المجاز كامنة في طريقة تقديم المعنى وكونه زيد في إثباته تأكيدا وتشديدا وقوة ..."[10].

وعندما يتعلق الأمر بالإثبات أو النفي أو التأكيد فهو إذا – يؤدي وظيفة حجاجية، والمتكلم يصبح هنا في مقام إرسال دعوى يدعيها، ويريد تثبيتها في عقل المخاطب وترسيخها في نفسه، وتتضح هذه الوظيفة الحجاجية للمجاز أكثر في كلام السكاكي: "من أتقن أصلا واحدا من علم البيان كأصل التشبيه أو الكناية أو الاستعارة (...) أطلعه ذلك على كيفية الدليل"[11].

والظاهر هنا أن الأمر متعلق بكيفية توظيف وجوه البيان والقدرة على جريانه في سياق تخاطبي معين، حتى يؤدي وظيفته الحجاجية، وحسب رأي السكاكي، أن مستعمل وجوه البيان يسلك مسلك صاحب الاستدلال، ولا يمكن الفصل بينهما، لأن البيان هو إدعاء أيضا إذ يقول: " إلزام شيء يستلزم شيئا فيتوصل بذلك إلى الإثبات أو يعاند فيتوصل بذلك إلى النفي .."[12]. وما يجب التنبيه إليه والانتباه له في هذا المقام ، هو أن الاستدلال البياني أو المجازي أشد تأثيرا من غيره من الاستدلالات الأخرى، " باعتبار أن المجاز أبلغ من الحقيقة، والأستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه، وأن الكناية أوقع من الإفصاح بالذكر"[13].

ويمكن أن نضيف إلى هذا، أنه عندما نتوسل وجوه البيان أثناء المخاطبة نكون قد راعينا إلى جانب عقول السامعين نفوسهم وانفعالاتهم ومتخيلاهم، ولهذا نجد البلاغيين القدامى عندما تحدثوا عن شدة تأثير وجوه البيان في المتلقي قد ركزوا على القلب والنفس أكثر من حديثهم عن العقل، وفي هذا يقول عبد القاهر الجرجاني عن الصورة التشبيهية: "كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب"[14].

ويتأكد لنا هذا الكلام أكثر عندما ننظر في كلام السكاكي: "أن ميل النفس إلى الحسيات أتم منه إلى العقليات"[15]، وهذا ماقصده القزويني عندما قال: وتمكين المعنى في القلب"[16].

والحقيقة أن الإشارات إلى تعلق المجاز بالنفس، وقوة التأثير فيها هي ذوات العدد، ولا شك أن الذي يجيد استعمال اللغة بفنونها يبلغ مراده من السامع، " فخير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك .."[17].

ب- الحجاج بالتمثيل (التشبيه).

يكون التشبيه أبلغ إذا وفق المتكلم في اختبار صوره وفقا لطبيعة المقام، "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني كساها أبهة... وضاعف قواها في تحريك النفوس ودعا القلوب إليها .."[18].

وبعد تصفحنا لكتاب الإيضاح وجدنا إشارات ذات مفاهيم حجاجية بالأساس، بدءا بالتعريف الذي قدمه القزويني لصورة التشبيه، قائلا: "فاعلم أنه مما اتفق العقلاء على شرف قدره، وفخامة أمره في فن البلاغة، وأن تعقيب المعاني به يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحا أو ذما"[19]، وهو بتعريفه هذا لا يخرج عن كلام شيخه الجرجاني في شيء، فكلا التعريفين يعززان البعد الحجاجي للصورة التشبيهية، فالمعاني تستقر في النفوس، وبعدها يتم قبولها، وفي الأخير تتحرك إلى مقصودها.

وتبرز لنا الوظيفة الحجاجية للتمثيل أكثر، مع المثال الذي قدمه القزويني، "ومن الدليل على أن للإحساس من التحريك للنفس وتمكين المعنى أنك إذا كنت أنت وصاحب لك يسعى في أمره على طرف نهر، وأنت تريد أن تقول له: أنه لا يحصل من سعيه على طائل، فأدخلت يدك في الماء ثم قلت: أنظر هل حصل في كفي من ماء شيء ؟، فكذلك أنت في أمرك، كان لذلك ضرب **من التأثير في النفس وتمكين المعنى في القلب**"[20].

ولا يخفى على أحد ما لهذه الصورة من تأثير بالغ، فالمتكلم اهتدى إلى التعبير بالتصوير والتخييل مستهدفا المخاطب عقله وقلبه معا، والمعنى الذي يريد إيصاله إلى المخاطب هو الخيبة في السعي، وهذا المعنى يكون أقرب إلى القبول وأدعى إلى التأثير عندما يكون مصحوبا بالدليل وقد مثله في هذا المقام حال الذي يريد أن يمسك الماء، والجامع بينهما هو استحالة تحقيق النتيجة، والمسار الحجاجي الذي يمكن أن نحلل به هذا الشاهد ونوضحه أكثر هو كالتالي:

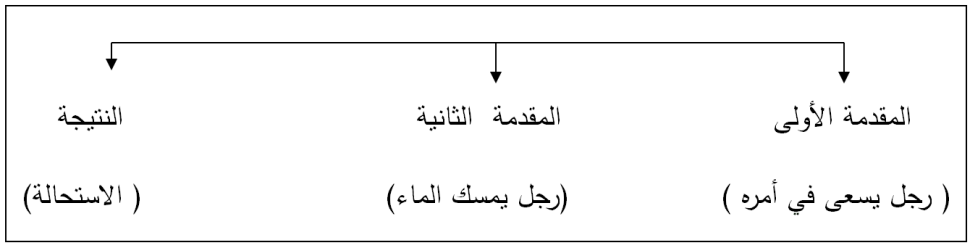

فالاستعانة بالتمثيل هنا، يعد تقنية حجاجية لها فاعلية قوية في محاولة الإقناع، وذلك عن طريق إثارة المتلقي في الأول، ثم تشغيل فكره بالبحث عن العلاقة الجامعة بين طرفي التشبيه (المشبه والمشبه به).

وفي مثال آخر ساقه القزويني – والأمثلة كثيرة – قول البحتري[21]:

دان على أيدي العفاة وشاسع عن كل ندّ في الندى وضريب

كالبدر أفرط في العلو وضوؤه للعصبة السارين جدّ قريب

فالمكون الحجاجي هنا يبدو في التحول بالخطاب من مجرد إبلاغ رسالة لسانية عن الممدوح وأنه ذو فضل على الناس، إلى مادة فنية تتمتع بها النفوس، وتتحرك لقبولها، "لأن المعنى يكون مقنعا ولكنه يحتاج إلى جمال يوشيه ويحفظ له رونقه ويدعم فعله"[22].

فجوهر الحسن والطلاوة، وإلصاق المعنى بالصدور يحصل بضرب الأمثلة، وفي ذلك يقول السيوطي: "فبحسن اللفظ واختلافها على المعنى الواحد ترصّع المعاني في القلوب وتلتصق بالصدور، ويزيد حسنه وحلاوته بضرب الأمثلة والتشبيهات المجازية"[23].

وقد يتوسل ببعض التمثيل لتحقيق نوع من المبالغة في المعنى المراد ترسيخه لدى المتلقي وإشعاره بقوة الحدث وعظم شأنه، تكمن القيمة الحجاجية للخطاب في الهدف الذي يريد أن يصل إليه المرسل، مما يدفع به إلى اختيار الطرق التي تمكنه من ذلك، فالشاعر فيما سبق يريد أن يقنع الآخر بأن ممدوحة أفضل من الناس ويجب تعظيمه.

وللتأكيد على نجاعة الطرق الحجاجية وإظهار نتائجها يمكن عرض قول القزويني: " ما يحصل للنفس من الأنس بإخراجها من خفي إلى جلي، كالانتقال مما يحصل لها بالفكرة إلى ما يعلم بالفطرة (...) وكالانتقال من المعقول إلى المحسوس"[24].

ويحصل هذا عن طريق ما توحي به تلك الصور المدركة بالحواس من خيالات في ذهن المتلقي، لأنها أصبحت وعبر تمثيلها حقيقة يستطيع أي متلق أن يراها ويسمعها ويلمسها ولا سبيل إلى إنكارها أو الشك فيها.

والتحليل الحجاجي للصور التشبيهية التي اخترناها من مدونة الإيضاح والتي يمكن بسطها على النحو التالي:

- **المشبه**، يمكن عده مقدمات (معطاة).
- **المشبه به**، عبارة عن استدلالات وحجج.
- **النتيجة**، هي الإقناع بالفكرة أو دحضها (استجابة المتلقي).

وتقريب الصورة (صورة الموصوف) من ذهن المتلقي هي وظيفة حجاجية يضطلع بها التشبيه باعتبار الطرف الثاني (المشبه به) حجة على الطرف الأول (المشبه)، وخاصة مع صورة التشبيه الضمني الذي يظهر فيه المكون الحجاجي بصورة أقوى، وفي ذلك تقول الباحثة سامية الدريدي: "فمأتى الحجاج في التشبيه الضمني أنه قياس خطابي على مقدمات ويفضي إلى نتيجة"[25]. والمثال الذي قدمه القزويني في هذا الباب هو قول المتنبي:

فإن تفق الأنام وأنت منهـــم فإن المسك بعض دم الغـــزال

فالأوصاف الفاضلة والمميزة في ممدوحه والتي فاق بها غيره جعلته فردا غريبا، بل هو ادعاء يحتاج إلى إثبات جواز وجوده، لهذا جاء بالاستدلال (المشبه به) في الشطر الثاني إثباتا لصحة المقدمة، وهي إدعاء تلك الصفات في الممدوح، ويقول القزويني: "فإن المسلك بعض دم الغزال، أي ولا يعد في الماء لما فيه من الأوصاف الشريفة التي لا يوجد شيء منها في الدم وخلوه من الأوصاف التي لها كان الدم، **فأبان أن لما أدعاه أصلا في الوجود على الجملة ...**"[26].

وفكرة الادعاء التي يتحدث عنها هنا هي أحد الأسس التي يقوم عليها الحجاج ، ومنه يمكن القول، أن كلام القزويني قد تضمن المكون الحجاجي بجميع عناصره، فالخطاب: **فإن المسك بعض دم الغزال**، هو حجة ثابتة ودليل على دعوى المتكلم، يفضي إلى نتيجة قد تضمنها قول القزويني: **فأبان لما أدعاه أصلا في الوجود**.

نعود إلى معنى البيت لنقول: إن مثل هذه الأمور الغريبة التي ادعاها في الممدوح من الصعب التسليم بها وقبولها هكذا من دون التدليل عليها، والمتنبي هنا عمد إلى الحجاج لإثبات هذه الدعوى، والمتمثلة في أنه فرد منفرد عن جنسه وفاقه حتى أصبح جنسا بنفسه، وهذا الشيء هو المسك الذي أصله دم الغزال، والادعاء معناه دخول المشبه في جنس المشبه به ـ إذن ــ وبفضل هذا التشبيه نقول: إن الأمر المستغرب فيه قد زالت غرابته، وبالتالي تمت الفائدة من الخطاب وهي النفاذ إلى عوالم المتلقي الفكرية والشعورية .

ومن الإشارات إلى حضور الخطاب الحجاجي في مدونة الإيضاح ما حكاه القزويني عن ذلك الرجل الأعرابي الذي وقف على حلقة الحسن فقال: "رحم الله من تصدق من فضل أو آسى من كفاف أو آثر من قوت (...)، فقال الحسن: ما ترك لأحد عذرا، فكأنه كان **يحاجج** ويحاول **إقناع** الحضور بحاله، فجاء مستوفيا كل حالات المجتمع من فضل ومن كفاف ومن قوت..."[27]، فذكر المرسل حجة كليا في أول الأمر، ثم يعود إلى تعداد أجزائها، فيصبح كل جزء منها بمثابة دليل على دعواه"[28]، وهو في حكاية الأعرابي مع الحسن نجد قد قام بطرح قضية عامة، تمثلت في السعي **لنيل رحمة الله**، ثم توسع في هذه القضية أو الأطروحة بعرض جملة من الحجج، وكل واحدة منها تخدم القضية العامة (**رحمة الله**)، وهذا التوسع والشمول هو أحد اتجاهات الحجاج عند الدارسين المعاصرين، وتقسيم الكل إلى أجزائه هو نوع من الحجاج يدعى التفريع أو التقسيم، وقد أشار إليه كل من (ديكرو- واسكومبير) في حديثهما عن الحجاج داخل اللغة: "ويمكن تسميته بمنطق الكلام أي تلك القواعد الداخلية للخطاب التي تتحكم في ترابطه وتسلسله"[29].

النتيجة، أن قيمة التشبيه لا تنحصر في العلاقة بين طرفيه ولا يؤتى به من قبيل الزخرفة والتحسين، وإنما جيء به ليزيد المعنى وضوحا، فيتمكن من قلب السامع، وهذا ما جاء به الدرس التداولي الحجاجي المعاصر، فنشأ عند ديكرو ما يسمى بالتداولية المدمجة، التي اهتمت بدراسة وسائل الإقناع في الخطاب اللغوي وركزت خصوصا على كيفية بناء الخطاب لحمل المخاطب على مشاطرة المخاطب رأيه"[30].

ج- الحجـــــاج بالاستعارة.

الاستعارة هي ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب وتدركه العقول وتستفي فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان"[31].

فهي بهذا ليست حلية اللفظ وزينة الكلام، بل هي مكون وبنية تقصد تحقيق المعنى وبلوغه العقل والنفس معا.

وبالعودة إلى تراثنا نجد إشارات واضحة ودالة على حضور القول الاستعاري ووظيفته الحجاجية في كتاب الإيضاح، من ذلك ما قاله القزويني: "أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة وأن الاستعارة أبلغ من التمثيل لا على سبيل الاستعارة"[32].

يدلنا هذا الكلام على أن الاستعارة من أحسن وسائل التبليغ، وذلك بالنظر إلى الطاقة الحجاجية التي توفرها للمتكلم من أجل التأثير في المتلقي، "والقول الاستعاري يتميز عن القول الحرفي في الحجاج، لكونه يؤدي عدة وظائف في عملية التخاطب وعمليتي الفهم والتأويل بين المتكلم والسامع، ولذا فإن القول الاستعاري يعد آلية حجاجية بامتياز"[33].

وقد تنبه القزويني مبكرا إلى أفضلية القول الاستعاري، عندما قال: " فليست فضيلة قولنا: رأيت أسدا على قولنا: رأيت رجلا هو والأسد سواء في الشجاعة (...) إنما الأول أفاد **تأكيدا لإثبات المعنى** لم يفدها الثاني ... وإثبات المعني به **كدعوى الشيء ببينة،** ولا شك أن دعوى الشيء ببينه أبلغ في إثباته من دعواه بلا بينه"[34]، وهذا المفهوم حول الاستعارة هو مفهوم متقدم عما أقره (بيرلمان وتيتيكا) في إشارتهما أن كل دراسة لمجموع الحجاج لا بدّ أن تأخذ بعين الاعتبار أن الاستعارة والتمثيل من عناصر الحجّة، ويرى بيرلمان: " أن أي تصور للاستعارة لا يلقي الضوء على أهميتها في الحجاج لا يمكن أن يحظى بقبولنا"[35].

وبالنظر إلى عبارات القزويني الواردة في نصه من قبيل: (الاستعارة أبلغ، إثبات المعنى، دعوى الشيء ببينه ...) يتبين لنا أنه انحياز صريح إلى الجانب الحجاجي الإقناعي الكامن في القول الاستعاري، وربما عدت الاستعارة أبلغ من التشبيه لأن صورة التشبيه مكونة من عنصرين حجاجيين ظاهرين (المشبه والمشبه به)، ويمكن وصفهما مقدمتين يفضيان إلى نتيجة، وتبقى نسبة المطابقة بينهما غير يقينية في تقدير المتلقي، بينما في القول الاستعاري يعتمد على مقدمة واحدة كأنها يقينية، وأن نسبة المطابقة بينهما كاملة،

فاستعارة لفظ الأسد للرجل، أنه أفاد المبالغة في الوصف المقصود بالشجاعة، وإيقاع في نفس المتلقي صورة الأسد في بطشه وقوته" [36].

وحسب رأي الباحث (أبو بكر العزاوي) أنه يمكن ربط القول الاستعاري بالسلم الحجاجي، وأن الأقوال الاستعارية أعلى وأقوى حجاجيا من الأقوال العادية"[37].

وعلى هذا الأساس يمكن لنا تحليل الصور الاستعارية تحليلا حجاجيا، كتلك التي جاءت في كتاب الإيضاح: " **كلما سمع هيعة طار إليها**، وحسب تعليق القزويني على هذا الأسلوب: أن الطيران والعدو يشتركان في أمر داخل في مفهومها، وهو قطع المسافة بسرعة ... ولكن الطيران أسرع من العدو ..."[38].

ويمكن أن نمثل لهذه الاستعارة بواسطة السلم الحجاجي التالي:

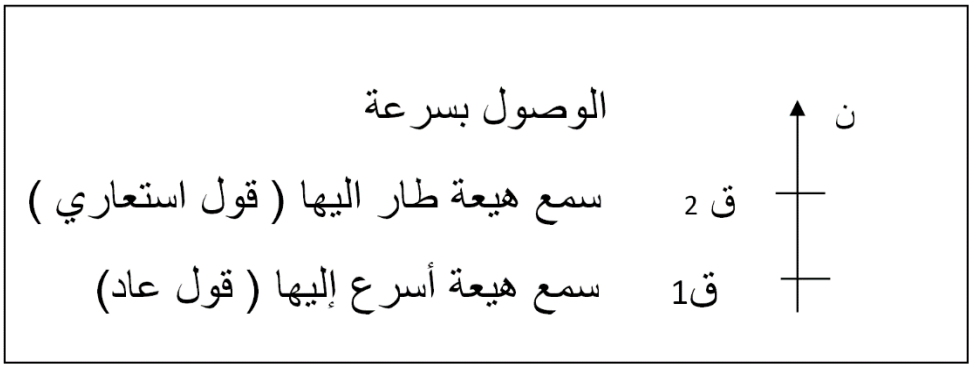

والملاحظ على هذا الترتيب في السلم الحجاجي أن القول العادي (ق1) ورد في شكل كلام صريح، وبالتالي فهو أضعف حجاجيا من الكلام المجازي البلاغي الذي يمثله القول الاستعاري (ق2) الوارد في أعلى السلم، والأقرب إلى النتيجة التي مفادها، **السرعة الفائقة**. وبلغة رياضية أخرى يمكن أن نجمل هذا الكلام في شكل معادلة حسابية مقتضاها،

أ ـ سماع هيعة + الطيران = سرعة أقوى

ب ـ سماع هيعة + العدو = سرعة أقل

يتضح أن النتيجة في القول (أ) أفضل من نتيجة القول (ب)، وهو مجموع في قول القزويني: **ولكن الطيران أسرع من العدو**.

يترتب على هذا أن كلام القزويني في الجملة السابقة يمثل نتيجة للمقدمتين المختلفتين (أ . ب)، وأن المعنى بهذا أصبح ثابتا ومؤكدا في ذهن المتلقي، وذلك عندما كان مؤيدا بدليل (القول الاستعاري)، وعرض الدعاوى بهذه الكيفية عبر سلسلة من الأقوال هو منحى حجاجي مؤسس له في الدرس التداولي المعاصر.

ومثل هذا التحليل يمكن سحبه على جميع الأمثلة المتعلقة بالاستعارات الواردة –بكثرة– في كتاب الإيضاح.

الخلاصة، أنه يمكن أن نعتبر الأقوال الاستعارية آلية بلاغية أقوى حجاجيا من الأقوال العادية يتوسلها المتكلم في محاولة إقناع مخاطبية، فمنتج الخطاب يسعى للتعليل والبرهنة عن طريق المبالغة أو الإدعاء لكي يرغم المتلقي على الإقناع والإذعان.

والاستعارة لا يقصد بها مجرد نقل لفظ عما وضع له ، بل المقصود منها المبالغة في الوصف، وتحصل المبالغة بإدعاء المتكلم في المعنى"[39]، ويقول عنها الباحث ابن الظافر الشهري: "هي وسيلة هامة من وسائل التأثير والحجاج، لما لها من قدرة في التصوير ... فهي تعد من أبلغ الصور وأقوى الآليات البلاغية حجاجيا "[40].

د – الحجاج بالكناية .

تعد الكناية من أهم أنواع الحجاج، فالمتكلم عندما يريد إثبات معنى من المعاني يعدل عن التصريح باللفظ الموضوع له في اللغة، ويلجأ إلى: "معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه"[41].

ويبدو الوجه الحجاج في القول الكنائي في الرمز الذي ينشئه المتكلم المحاجج بهدف التأثير في المتلقي، الذي يوجه إليه الخطاب المجازي، وعلى قدر استجابة هذا الأخير تبرز القيمة الحجاجية والقدرة الإقناعية للصورة الكنائية، لأنه يؤتى بها كدليل قوي على قصد

المتكلم في إثبات المعاني والصفات، والتأكيد عليها، ولهذا المعنى أشار القزويني بقوله: "**فأفاد إثبات** الصفات المذكورة له بطريق الكناية"[42]. وتزداد قوتها عندما تكون عن طريق المبالغة: "كقولهم: "مثلك لا يبخل"، قال الزمخشري: نفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته، قصدوا المبالغة في ذلك، فسلكوا به طريق الكناية"[43].

والقوة الحجاجية في الأسلوب الكنائي لا تأتي على نمط واحد بل ترد متفاوتة، وذلك بحسب الخطاب المجازي المحاجج به، ومن ثمة يترتب عليه تفاوت في درجة الإقناع وتحريك آلية الفهم والتأويل لدى المتلقي.

ووجدنا في كتاب الإيضاح ما يتوافق مع هذا الطرح، ويمثله قول القزويني نقلا عن السكاكي: "وقال السكاكي الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة (...) وأن الكناية أبلغ من الإفصاح بالذكر"[44].

والكناية هي من الظواهر الكلامية الخطابية التي تلزم معنى آخر، والمعبر عنه عند القدامى **بمعنى المعنى**، وعند التداوليين المحدثين بالاقتضاء أو الاستلزام، و كتاب الإيضاح مملوء بأمثلة وشواهد متنوعة في باب القول الكنائي، وهي في مجملها تتضمن قيما تداولية بارزة، وتحمل طاقة حجاجية تستهدف المتلقي عقله وعاطفته معا، من ذلك قولهم كناية عن الأبله: عريض الوسادة (...) فإنه ينقل من عرض الوسادة إلى عرض القفا ومنه إلى المقصود"[45].

ولا بأس أن نمثل هذا الكلام وفق السلم الحجاجي – على سنة الباحث (أبو بكر العزاوي)– وبالكيفية السابقة، نحو.

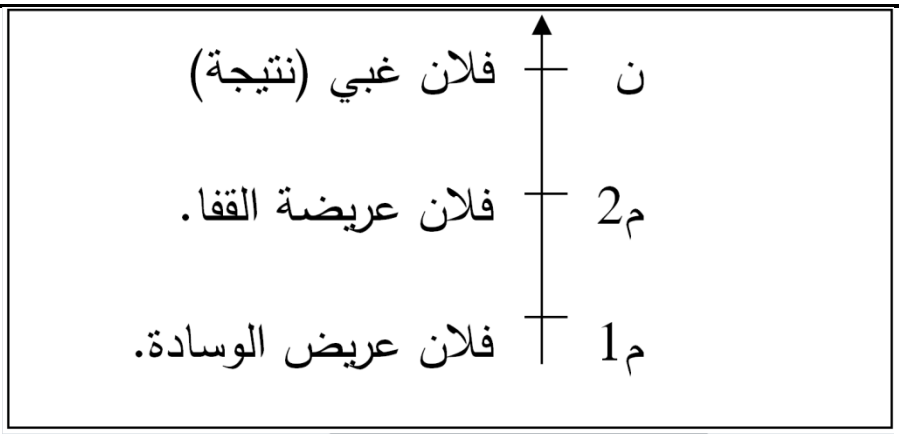

الملاحظ على هذا الكلام أنه يحوي مقدمتين اثنتين يمكن عدهما حججا أولية تفضي إلى نتيجة مفادها هنا هو إثبات صفة الغباء، وتعتبر هذه النتيجة قصد المتكلم وهدفه منذ البداية، ولكي يرسلها من موقع المؤثر على المتلقي اختار لها صورة محسوسة، وهو **عرض الوسادة**.

ولتعزيز البعد الحجاجي أكثر في بلاغة القزويني، نسوق مثالا أخر يقول: ى"...وكقولهم كثير الرماد، كناية عن المضياف، فإنه ينتقل من كثرة الرماد إلى كثرة إحراق الحطب تحت القدور ومنها إلى كثرة الطبائخ، ومنها إلى كثرة الأكلة ومنها إلى كثرة الضيفان ومنها إلى المقصود"[46].

فما يستخلص من تعليق القزويني على الصورة الكنائية (كثير الرماد)، أنه يشتمل على سلسلة من الأقوال ورد تتابعها في شكل متنام وتدريجي، ويمكن عدها حججا وأدلة تؤدي في مجملها إلى نتيجة ممثلة في لفظة (الضيفان)، لكن أثناء التلفظ بالقول الكنائي **فلان كثير الرماد**، نكون قد اختزلنا تلك المتوالية من الجمل والخطابات من قبيل (كثرة إحراق الحطب كثرة الطبائخ ،كثرة الأكلة ...)، وفي هذه الحالة نعول على المتلقي أو القارئ في إدراك هذه العلائق والقواعد بين هذه السلسلة الكلامية، ومن ثمة نكون قد قمنا باستدراجه

واستثارة عقله وفكره كي يفهم المقصود العام من التواصل، وهذه وظيفة حجاجية خالصة قد اضطلعت بها هذه الصورة البلاغية، وحدث من خلالها الفهم والبيان .

ويمكن ترجمة هذه المتواليات القولية ونتائجها بحسب الإستراتيجية المتبعة من قبل القزويني على شكل رسم بياني تباعا للخطاطات السابقة:

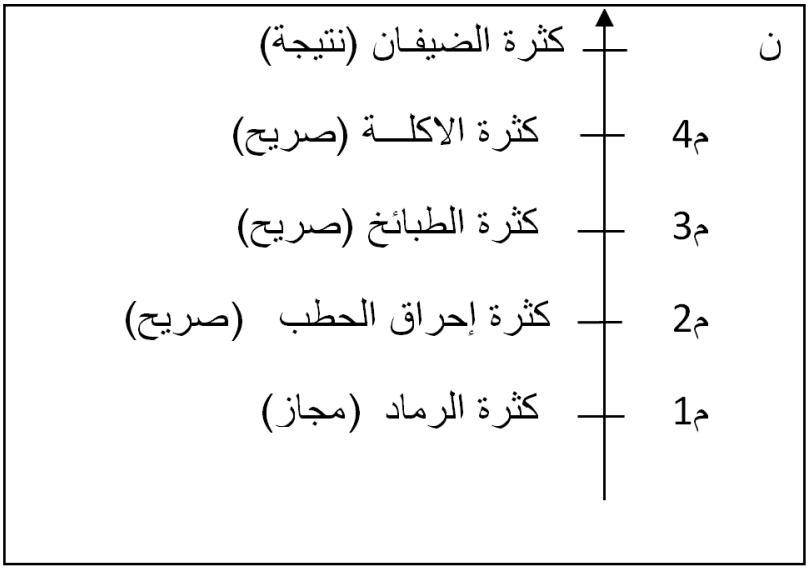

إضافة إلى هذا التحليل الحجاجي لنص القزويني، يستحسن ان ننبه الى مؤشر حجاجي آخر مؤداه: تلك القواعد الداخلية لهذا الخطاب وهو الترتيب المنطقي لهذه المتواليات الجملية، فكثرة الرماد هو نتيجة لمقدمة قبلها، تمثلها جملة **كثرة إحراق الحطب**، وهي بدورها مؤشر على كثرة الطبائخ التي تأتي بعدها، ومنه كثرة الأكلة، وتحليل القزويني للخطاب اللغوي السابق وبهذه الكيفية الإجرائية من قبيل ذكر الأسباب والنتائج واختيار الإستراتيجيات الاستدلالية المناسبة، كان من أجل تحقيق المقصود، وهو استماله المخاطب

ومحاولة إقناعه، وهذه الالتفاتة هي قيمة حجاجية مضافة لها خطورتها في الدرس اللغوي قديما حديثا .

هـ- الحجاج ببعض البنيات البديعية.

إن الوظيفة الأساسية التي يضطلع بها علم البديع هي تزيين اللفظ وتجميله، وكذا تقوية المعنى وإيضاحه، يقول القزويني في ذلك: "هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة ... وهذه الوجوه ضربان: ضرب يرجع إلى المعنى وضرب يرجع إلى اللفظ ..."[47].

فالمتكلم عندما يرسل خطابا ويكون قد حسنه وراعى فيه أحوال المخاطبين، وتوخى فيه وضوح الدلالة والمقصد، إنما يكون بذلك قد استهدف عقل مخاطبة وفكره، وكذا نفسه ومشاعره وهنا تكمن القيمة الحجاجية لهذا العلم، لأنه متى كان الكلام واضحا في ذهن المتلقي كان أدعى للقبول والإقناع، وكلما ألبسه صاحبه أبهة وجمالا، كان له الوقع السحري والحسن على النفس.

وقد جاء في كتاب "اللغة والحجاج للباحث المغربي (أبو بكر العزاوي)، أن دراسة الحجاج في مستوى اللغة، قد انطلقنا فيه ـ حسب تعبيره ـ من فكرة شائعة مفادها، أننا نتكلم عامة بقصد التأثير والإقناع، والإنسان عندما يتكلم فإنه يمارس سلطة على الأخر"[48]، ويدعم هذا المفهوم الباحث صابر الحباشة في حديثه عن حجاجية البديع قائلا: "إن محسنا لهو حجاجي إذا كان استعماله وهو يؤدي دوره في تغيير زاوية النظر (...) وعلى العكس من ذلك فإذا لم ينتج عن الخطاب استمالة المخاطب فإن المحسن سيتم إدراكه باعتباره زخرفة"[49].

ومنه نخلص إلى أن القيمة الجمالية في البديع تخص المعنى وتخص الأسلوب معا، فكلاهما وسيلة من وسائل التواصل والإبلاغ، ومن غير الممكن أن تتحقق العملية التواصلية والإبلاغية بكلام لم تتوفر فيه خاصيتي الوضوح والحسن .

ومما جاء في كتاب الإيضاح حول هذا المكون البلاغي الحجاجي، يمثله قول القزويني: "ومن لطيف الطباق قول الفرزدق:

لعن الإله بني كليب إنهم لا يغدرون ولا يفون لجـار

ويذهب في تعليقه على هذا البيت قائلا: وفي البيت تكميل حسن إذ لو اقتصر على قوله: **لا يغدرون** لاحتمل الكلام ضربا من المدح، لأن تجنب الغدر قد يكون عن عفة، فقال: **ولا يفون** ليفيد أنه للعجز، كما أن ترك الوفاء للؤم"[50]، فالتقابل الحاصل في البيت هو بين معنيين أساسيين وهما: نفي صفة العفة عن بني كليب، وإثبات صفة العجز فيهم، والدفاع عن فكرة ودحض أخرى هو جوهر النظرية الحجاجية وأساسها.

ويمكن تمثيل هذا على النحو التالي:

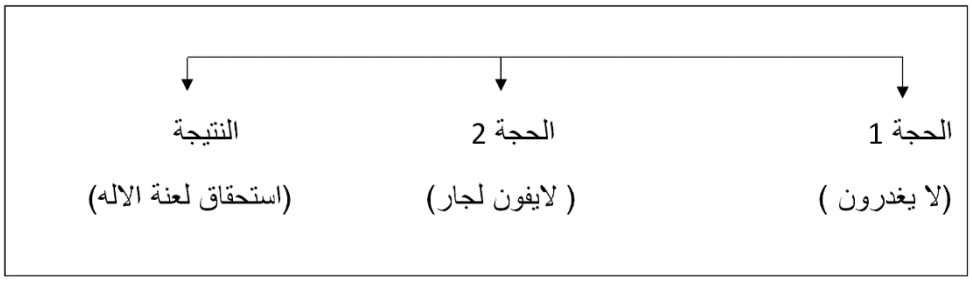

والتوسل بمثل هذه الآليات يكون على سبيل الدفع إلى نتائج معينة في التخاطب، تجعلنا نجزم بأن الفعالية الحجاجية كامنة في مثل هذه المهارات الأسلوبية، بل تعد من أهم العوامل التي تبرز في ضوئها الطاقة الحجاجية وتعطي الكلام صفة القوة، وبالتالي صفة النجاعة .

ويمكن لنا أن نعزز هذا الكلام بنموذج آخر قدمه القزويني، وفيه تبرز الطاقة الحجاجية بشكل أوضح إذ يقول: "... ومن لطيف المقابلة ما حكي عن محمد بن عمران التيمي، إذ قال له المنصور: بلغني أنك بخيل، فقال: **يا أمير المؤمنين ما أجمد في حق، ولا أذوب في باطل**"[51]، فبقليل من التأمل في هذا النص ندرك أنه اشتمل على عناصر حجاجية بارزة

ممثلة في أن المدعى عليه (المخاطب) تمكن من إبطال الدعوى التي كانت في حقه، وهي صفة البخل، متوسلا في ذلك تقنية خطابية بلاغية، ألا وهي **المقابلة**.

ولا شك في أن هذا التقابل بين المعنيين المتضادين وما بينهما من تناسب، قد استطاع أن يؤثر به على المدعي (أمير المؤمنين)، ويجعله يعدل عن رأيه، وهي نتيجة عامة مضمرة لم نلمحها في الخطاب، ولكن دلت عليها قرينة السياق، ومن لطائف هذه المقابلة كذلك أنها ردت على **الادعاء** الحاصل في صفة البخل، وتجاوزته إلى الرد على إدعاء خفي غير ظاهر وهو الإسراف، وذلك في قوله: **ولا أذوب في باطل**، علما أن أمير المؤمنين لم يدع عليه صفة الإسراف، ولكن المخاطب أتى به من باب سد المنافذ، وإقامة الحجة على خصمه، كما توحي بذلك ملابسات السياق.

وما يقال عن فضيلة الطباق والمقابلة في الكشف عن المعاني وتجلياتها يمكن قوله عن التورية، لأن حجاجية هذا المحسن المعنوي منصبة على المعنى وكيفية الوصول إليه واكتشافه من قبل المتلقي، والخطاب الذي يكون به هذا المحسن يكون المعنى فيه غامضا ومورّى، ولكن بعد إدراك معناه تزداد درجة قبوله وثبوته في ذهن المتلقي، وبالتالي نحن أمام إضافة قيمية حجاجية، قد تركتها هذه الآلية البديعية.

ولا نغفل عن الشق الثاني من المحسنات البديعية، والموسوم بالمحسنات اللفظية، والمزية فيها أنها تكسب الكلام جرسا عذبا، وإيقاعا لطيفا، تصغي له الأذن وتستأنسه وترتاح له النفس وتستعذبه ومنه قبوله، وفي هذا تقول الباحثة الدريدي: "فيمكن اعتبار الموسيقى رافدا من روافد الحجاج، من جهة استيلاء ما وقع على النفوس وامتلاك الأنغام للأسماع، وما كان أملك للسمع كان أفعل باللب وبالنفس"[52].

ومما يدل على عناية القزويني بآليات البديع هو إفراده الجزء الأخير من الكتاب للحديث عن هذا النوع، مسميا إياه **بعلم البديع**، وفيه تناول جميع المحسنات بنوعيها: المعنوية واللفظية، و مصحوبا بأمثلة كثيرة ومتنوعة، وأثناء تفحصنا لهذه الشواهد و

تعليقات صاحبها وقفنا على إشارات مهمة وخطيرة بالنسبة للدرس اللساني الحديث ومؤداها أن هذه الآليات البلاغية لم يؤت بها على سبيل الصنعة والزخرفة ، وإنما حسنها في مدى تمكنها من نفس المتلقي، ومحاولة إفهامه، وتوضيح المعنى له، فيقول عن فضل الجناس مثلا: " ووجه حسنه أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة، كالميم من – عواصم –[53] أنها هي التي مضت وإنما أتى بها **للتأكيد**، حتى إذا تمكن في نفسك ووعاها سمعك انصرف عنك ذلك التوهم، وفي هذا حصول الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها "[54].

ومأتى الحجاج هنا، أنه يروم بها تغيير زاوية النظر لدى المتلقي، والمعبر عنها في خطاب القزويني بالجملتين: (حصول الفائدة و إبعاد اليأس). وفي حديثه عن السجع وأنواعه وأيهم أفضل وأحسن، قال: "لأن السجع إذا استوفى أمده من الأول لطولها ثم جاءت الثانية أقصر منها كثيرا يكون كالشيء المبتور ويبقى السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها، والذوق يشهد بذلك ويقضي بصحته"[55]. والاهتمام بالسامع وبالخطاب وكيف يلقى إليه هو مظهر تداولي بالأساس.

وفي مثال آخر كان قد قدمه القزويني عن لطيف السجع: "ومن لطيف السجع قول الهمذاني: كتابي والبحر وإن لم أره، فقد سمعت خبره، والليث وإن لم ألقه تصورت خلقه، والملك العادل وإن لم أكن لقيته، فقد لقيني صيته"[56]، والسامع وحده هو من يدرك هذا اللطف في الكلام ويستمتع به.

وأثناء كلامه عن المحسنات البديعية لاحظنا كلاما عن جانب من جوانب الاستدلال المنطقي كما يفعل أهل المنطق والبرهان، وذلك في حديثه عن المذهب الكلامي، "وهو أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام، كقوله تعالى: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا" (الأنبياء/22) وكذلك قوله تعالى: "فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ" (الروم/27) أي: القمر أفل وربي ليس بآفل، فالقمر ليس بربي"[57].

ويمكن تمثيل ذلك على السلم الحجاجي كما يفعل الدارسون المحدثون .

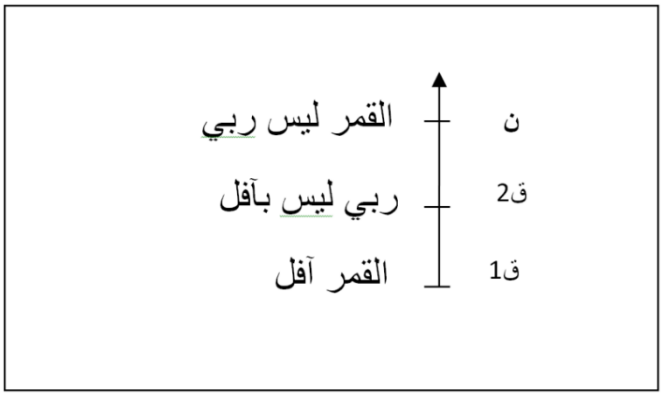

أو كما يفعل الرياضيون والمناطقة:

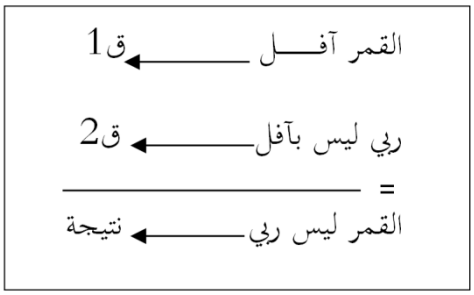

ختاما، إن الآليات البلاغية المتوسل بها من مجاز وتشبيه واستعارة وكناية وبديع، قد أثبتت نجاعتها في توجيه المخاطب، و حمله على مشاطرة المتكلم رأيه والتصرف وفق ما يرضاه . ووجدنا في كتاب الإيضاح ما يعزز هذا، إذ كل الأساليب البلاغية التي تناولها بالتحليل تهدف بالأساس إلى التحريض والإقناع والتأثير، وتسعى إلى تغيير أفكار المتلقي ومعتقداته، مما يدل على تقدم المقاربة العربية في دراسة التراكيب اللسانية (النظم) باعتباره جوهر التحليل الخطابي، وكان هذا قبل أن يؤكد اللساني المعاصر ديكرو أن الاستعمال الإقناعي ليس شيئا مضافا إلى اللغة، بل إنه موجود في نظامها الداخلي والموسوم عنده بالتداولية المدمجة .

الهوامش والإحالات:

[1] سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم (من الجاهلية إلى القرن الثاني الهجري).بناياته وأساليبه، عالم الكتب الحديث ،ط1.(2001)، ص 21.

[2] طه عبد الرحمان: اللسان والميزان والتكوثر العقلي، ص266.

[3] المرجع نفسه، ص2013.

[4] حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي،عالم الفكر، مجلة دورية محكمة، الكويت،العدد 1 سبتمبر 2011، ص 98/97.

[5] الجاحظ: البيان والتبيين ج 1 ص، 79، وص، 133

[6] ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح ،عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية بيروت 2001،ص247

[7] الجاحظ المرجع السابق، ص15/1.

[8] بن الظافر الشهري ،استرتيجية الخطاب، ص 477.

[9] الإيضاح، ص:274.

[10] الجرجاني: دلائل الإعجاز،ص 96/95.

[11] السكاكي: مفتاح العلوم ص 435.

[12] المرجع السابق. ص 505.

[13] ينظر الإيضاح، ص 340، ومفتاح العلوم، ص412.

[14] الجرجاني . أسرار البلاغة، ص117.

[15] مفتاح العلوم، .ص341.

[16] الإيضاح . ص221..

[17] أسرار البلاغة، ص108، 122.

[18] أسرار البلاغة، ص ،93/92.

[19] الإيضاح، .ص 218.

[20] الإيضاح، ص220 /221.

[21] الإيضاح، ص 218.

[22] سامية الدريدي: المرجع السابق .ص:122.

[23] السيوطي: المزهر في علوم اللغة، ج1، ،ص38 .

[24] الإيضاح، ص، 220.

[25] سامية الدريدي: الحجاج في الشعر القديم ،ص261.

[26] الإيضاح ..ص: 240-241.

[27] الإيضاح ، ص205.

[28] بن الظافر الشهري، المرجع السابق،ص449.

[29] -Ducrot osward .les echelles argumentative.editions de uimint paris1989 p: 12.

[30] مجلة عالم الفكر، المرجع السابق .ص101.

[31] الجرجاني: أسرار البلاغة، ص20.

[32] الإيضاح ، .ص 340.

[33] عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، ص120.

[34] الايضاح ،ص 341/340.

[35] Pereleman ;Traite de l argumentation . p 35.

[36] الإيضاح، ص 241.

[37] ابو بكر العزاوي: اللغة والحجاج ،ص 102.

[38] الإيضاح ،ص297.

[39] عبد الرحمان الحاج صالح: الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية الجزائر، 2012،ص 241

[40] ينظر عبد الهادي بن الظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب (المرجع السابق)،ص 496.

[41] الجرجاني: دلائل الإعجاز،ص66.

[42] الإيضاح، ،ص336.

[43] م ن ، ص137.

[44] الإيضاح ، ص.339-340.

[45] م ن ، ص332.

[46] الإيضاح ....ص 333.

[47] الإيضاح، ص:348.

[48] ينظر حوار حول الحجاج، أبو بكر العزاوي، الاحمدية للنشر الدار البيضاء،ط200،1، ص35، 36.

[49] صابر الحبارشة: التداولية والحجاج ،ص 51.

[50] الإيضاح، .ص 350.

[51] الإيضاح . ص: 355.

[52] الدريدي، المرجع السابق، ص:127.

[53] عواصم الواردة في بيت أبي تمام.

يمدون من عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

[54] الايضاح، ص:396.

[55] الإيضاح،ص، 403- 404.

[56] م ن، ص 404.

[57] م ن، ص384.

قائمة المصادر والمراجع:

1- سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم (من الجاهلية إلى القرن الثاني الهجري).بناياته وأساليبه،

2-طه عبد الرحمان: اللسان والميزان والتكوثر العقلي،

3-حبيب أعراب: الحجاج والاستدلال الحجاجي،

4-الجاحظ: البيان والتبيين ج 1

5-ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده

6-بن الظافر الشهري ،استرتيجية الخطاب،

7-الإيضاح في علوم البلاغة .

8-الجرجاني: دلائل الإعجاز.

9-السكاكي: مفتاح العلوم.

10-الجرجاني . أسرار البلاغة.

11-مفتاح العلوم.

12-أسرار البلاغة.

13-السيوطي: المزهر في علوم اللغة.

14-Ducrot osward .les echelles argumentatives.

15-مجلة عالم الفكر، العدد 1 سبتمبر 2011.

16-عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير.

17-Pereleman; Traite de l argumentation..

18-عبد الرحمان الحاج صالح: الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية.

19-ينظر حوار حول الحجاج، أبو بكر العزاوي.

20-صابر الحبارشة: التداولية والحجاج.